عمارة المساجد بمدينة وجدة
بين الإرث الأندلسي وتحولات المعاصرة

د. فاطمة الزهراء بنبراهيم
أستاذة للغة العربية بالسلك الثانوي التأهيلي بوجدة
المغرب

مسجد محمد السادس

يتّسم عالم مدينة وجدة بصبغته الروحانية العميقة، حيث تحكي معالمها الأثرية قصة انتقال حضارةٍ عبرت البحر ولم تغب؛ حضارةٍ استقرّت في مآذنها الصدّاحة بنداء الإيمان، وفي زليجها المزركش وأقواسها المنحنية التي تحمل لمسات الحرفيين الأندلسيين. فلم يكن سقوط غرناطة سنة 1492م نهايةً للحضور الأندلسي، بل كان بدايةً لانتقاله إلى الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، حيث ستجد هذه الروح نفسها ضمن سياق حضاري جديد، ليدخل لاحقًا في حوارٍ متجدّد مع تحوّلات العمارة الدينية المعاصرة.

وفي ظلّ اعتماد مساجد المدينة اليوم على الخرسانة المسلحة، والتقنيات الرقمية الحديثة، يبرز تساؤل جوهري: كيف استطاعت مساجد وجدة أن تظلّ جسرا واصلا بين الماضي العريق والعمارة الدينية الحديثة، محافظةً في الآن ذاته على روحها الأندلسية الأصيلة؟

ومنذ البدء، يجدر التأكيد على أنّ التأثير المعماري الأندلسي في المغرب لم يكن وليد هجرة الأندلسيين فحسب، بل شكّل جزءً أصيلًا من التراث الإسلامي المغربي منذ العصور الوسطى، ولا سيما خلال عهود المرابطين والموحدين والمرينيين، نتيجة العلاقات السياسية والثقافية

والاستراتيجية المتينة التي ربطت المغرب بالأندلس عبر القرون. غير أنّ موجات الهجرة الأندلسية أسهمت في تعميق هذا التأثير وترسيخه، مما جعل مدينة وجدة إحدى أبرز الحواضر المغربية المتأثرة به، ونموذجًا حيًّا لاستمرارية هذا الإرث الحضاري.

وفي هذا السياق، تقع مدينة وجدة في أقصى شرق المغرب، حيث سجل تأسيسها سنة 994م على يد الزعيم المغراوي زيري بن عطية. ومنذ القدم، عُرفت بموقعها الاستراتيجي، إذ شكّلت نقطة اتصال بين المغرب العربي وشمال إفريقيا والمشرق العربي، وهو ما أكّده أبو عبيدة البكري بقوله:" وعلى مدينة وجدة طريق المارّة والصادرة من بلاد المشرق إلى سجلماسة وغيرها من بلاد المغرب..."[1]

وقد جعلها هذا الموقع ملتقى للثقافات والتقاليد، ومركزًا لتلاقي الحضارات، حتى وُصفت بأنها "عواصم في عاصمة، بلورية الهيئة والبنيان: عاصمة الشرق، وعاصمة القرآن ومعاهده، وعاصمة المساجد والمنابر"[2]. إذ تضم المدينة داخل مجالها الحضري وأحوازها أربعمائة مسجد وأكثر، وفق إحصاءات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية خلال الفترة الممتدة بين 2016 و2018، وذلك بفضل المساهمات الخيرية والمشاريع الحكومية، مما جعلها تحتل المرتبة الأولى إفريقيًا، والثانية عالميًا بعد مدينة إسطنبول التركية من حيث عدد المساجد.

وبين إرث الزمن الماضي ومتطلبات اللحظة الراهنة، تشكل مساجد وجدة نموذجًا معماريًا فريدًا يعكس التحول العمراني للمدينة، مما يثير تساؤلات حول جوهر هذا التغيير وحدوده، ومدى التزامه بالمبادئ المعمارية التي اشتهرت بها مساجد وجدة تاريخيًا. ولاستجلاء الطريقة التي تحافظ بها المدينة على التوازن بين العمارة الدينية العتيقة والحديثة، لا بد من استعراض خصائص مساجدها المعمارية التاريخية، سواء على مستوى المآذن، الأقواس، الزليج، أو النقوش الزخرفية، ثم تحليل التحديثات والتطويرات التي طرأت عليها خلال السنوات الأخيرة.

تميّزت المساجد الأولى داخل المدينة العتيقة لوجدة ببساطةٍ معمارية واضحة، إذ اعتمد بناؤها أساسًا على مواد محلية متوفّرة، من قبيل الطين والجير والخشب، هذه المواد لم تكن مجرد خيار تقني، بل كانت تعبيرا عن فلسفة عمرانية تفضل الاستمرارية على الاستعراض. وغالبًا ما جاءت الصوامع مربّعة الشكل، بارتفاع متواضع، بينما اتّخذت الأقواس داخل بيت الصلاة هيئة مستقيمة أو ذات انحناء خفيف، بما يعكس توجّهًا وظيفيًا أكثر منه زخرفيًا. أمّا العناصر التزيينية، فقد اقتصرت على نقوش حائطية بسيطة، تمثّلت في شبكات مربّعة أو مستطيلات متوازية، إلى جانب كتابات قرآنية، تُعدّ اليوم شواهد أثرية مهمّة على تلك المرحلة المبكّرة من تطوّر العمارة الدينية بالمدينة.

وقد شُيّدت معظم هذه المساجد على مساحات محدودة نسبيًا مقارنةً بالمساجد التي أُنجزت في الفترات اللاحقة، وهو ما أسهم في الحفاظ على هياكلها المعمارية الأساسية، رغم ما تعرّضت له من ترميمات وتدخلات عبر الزمن.

ويُشير بعض الباحثين إلى أنّ عدد هذه المساجد، كان منحصرا في ثلاثة عشر مسجدًا، وُصفت عمومًا بأنها تفتقر إلى قيمة معمارية بارزة، باستثناء المسجد الأعظم[3]، الذي شُيّد في عهد السلطان المريني أبي يوسف يعقوب سنة 1296م، وتبلغ مساحته حوالي 1300 متر مربع[4].

وإلى جانب المسجد الأعظم، نجد مسجد سيدي عقبة، المنسوب إلى الفاتح الإسلامي عقبة بن نافع، والذي تتجاوز مساحته 400 متر مربع[5]، ومسجد حدادة ومساحته أكثر بقليل من 360 متر مربع[6]، فضلًا عن مسجد المخزن الذي تبلغ مساحته نحو 216 مترًا مربعًا.

---

[1] . المسالك والممالك، أبو عبيد الله البكري، تحقيق (أدريان ليوفن وأندري فيري)، الدار العربي للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق، بيت الحكمة، ج 2، ص: 752.

[2] . غنيت وجدة... نخيلا ووجدانا، رشيد بلحبيب، وجدة في وجداننا بعيون متعددة، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية وجدة، 2019، ص: 31

[3] . العمارة الإسلامية بالمغرب (مساجد وجدة نموذجا)، علي الرابحي، المجلس العلمي المحلي لمدينة وجدة، الطبعة الأولى، 2017، ص: 77.

[4] . تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، اسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1989، ج 2، ص: 133.

[5] . المرجع نفسه، ص: 148.

[6] . المرجع نفسه، ص:148.

كما تضم المدينة العتيقة مساجد أخرى أصغر حجمًا، من بينها مسجد جوهرة، ومسجد الباشا، ومسجد إيمر، ومسجد الزيتونة، ومسجد الدالية، ومسجد غربية، ومسجد طه، ومسجد الأشهب، ومسجد بلغيت، وهي مساجد لم تتجاوز مساحة كلٍّ منها 300 متر مربع، ممّا يعكس طبيعة النسيج العمراني والديني للمدينة في تلك المرحلة[7].

تُعزى بساطة العمارة الدينية خلال هذه المرحلة إلى حالة الاستقرار النسبي التي عرفتها المدينة في فترات المرابطين والمرينيين ثم العلويين، حيث انصبّ الاهتمام أساسًا على ترسيخ القيم الدينية والاجتماعية للمسجد، بوصفه فضاءً للعبادة والتنشئة الروحية والتماسك المجتمعي، أكثر من العناية بالبعد الجمالي أو الزخرفي. كما أسهمت محدودية الموارد الاقتصادية المتاحة، إلى جانب التركيز على الأولويات العسكرية والدفاعية التي فرضها الموقع الحدودي للمدينة، في تكريس توجّه معماري متقشّف يغلّب الوظيفة على الشكل.

وقد عكست التصاميم الهندسية لهذه المساجد، من حيث بساطتها وحجمها المحدود، الواقع الحضاري والعمراني لمدينة لم تكن قد بلغت بعد ذروة ازدهارها الفني والمعماري، مما يجعل من هذه المباني تعبيرا صادقًا عن المرحلة التاريخية التي نشأت فيها، وعن منظومة القيم التي حكمت إنتاجها العمراني.

شهدت مدينة وجدة تحوّلًا معماريًا ملحوظًا، شأنها شأن عدد من المدن المغربية، وذلك بفعل هجرة الأندلسيين عقب سقوط غرناطة سنة 1492م إلى المغرب. وقد أسهم استقرار ثلّةٍ منهم بالمدينة في إدخال خبرات فنية جديدة لم تكن مألوفة آنذاك، سواء على مستوى المباني، أو أساليب الزخرفة، أو مواد البناء، مما ترك أثرًا واضحًا في المشهد العمراني والجمالي للمدينة، وظلّت بصمته علامةً مميّزة على هياكل المساجد بشكل خاص.

فتمّ استخدام الحجر والطوب في البناء، واعتماد الأقواس المنحنية المزخرفة، كقوس حدوة الحصان، هذا القوس الذي يتجاوز نصف الدائرة ليعانق بعضه، وغالبا ما كان يحلى بجبس منقوش، كما أصبح الزليج ملوّنًا ومعقّدًا يغطي المحاريب والجدران والنافورات داخل المساجد، فضلًا عن النقوش الجصية والخشبية ذات الطابع الهندسي والنباتي (الأرابيسك)، التي زيّنت بدورها الأسقف والأعمدة والجدران، إلى جانب كتابات قرآنية بخطوط مغربية مزخرفة، خاصة خط الثلث.

ومع دخول مدينة وجدة مرحلةً جديدة خلال فترة الحماية الفرنسية(1912–1956) ، شرعت فرنسا " ابتداء من سنة 1913 في تشييد أحياء خاصة بجاليتها بعيدًا عن المدينة القديمة لوجدة، إذ اختارت المنطقة الغربية من المدينة لمخطط التهيئة، وجعلت من المحور الرئيسي لهذه الأحياء الطريق الرابط بين الثكنة العسكرية ومحطة السكة الحديدية (...) وتحولت المدينة من مدينة مغمورة إلى مدينة كبيرة تتحكم في إقليم شاسع بفضل البنيات التي أنشأها المعمّر لهذه الغاية."[8]

وقد اعتمد المستعمر سياسة هدم جزء من المدينة القديمة، وتشييد المدينة الحديثة محلّها، وهو " ما ساعد على النمو الديمغرافي للمدينة، حيث انتقل عدد السكان من 6500 نسمة سنة 1907 إلى 80500 نسمة سنة 1951، من بينهم 3175 يهوديًا مغربيًا و27200 أجنبي، غالبيتهم من الفرنسيين والجزائريين والإسبان"[9]. ونتيجة لذلك، عرف المشهد الديني والمعماري تحوّلات متعدّدة فرضتها الظروف السياسية والعمرانية المستجدّة.

وقد تجلّى ذلك في بروز تغييرات محدودة على نسيج المساجد، " التي لم تتجاوز 21 مسجدًا شُيّدت كلّها خارج المدينة القديمة، في الأحياء العربية"،[10] وتمثّلت أساسًا في استعمال مواد بناء حديثة نسبيًا، كالإسمنت والحديد، إلى جانب التخفيف من كثافة الزخرفة والتقليل من حمولتها الجمالية التقليدية. ورغم التبسيط، بقيت العناصر الأساسية (المئذنة المربعة، صحن الوضوء، المحراب المجوف) محافظة على شكلها

---

[7] . المرجع نفسه، ص: 149 – 150 – 151.

[8] . وجدة ... من مسجد المدينة إلى مدينة المساجد، عبد الحق الصدق، وجدة في وجداننا بعيون متعددة، ص: 40-41.

[9] . وجدة ... الأمل المغاربي، الكبير جنو، وجدة في وجداننا بعيون متعددة، ص: 107

[10] . العمارة الإسلامية بالمغرب (مساجد وجدة نموذجا)، ص: 78.

التقليدي. وقد مهّد هذا التحوّل لمرحلة معمارية لاحقة عقب الاستقلال، خاصة ما بين ستينيات وثمانينيات القرن العشرين، حيث أصبح الاهتمام موجّهًا نحو الوظيفة أكثر من الزينة، وهو توجّه تعزّز بشكل أوضح ابتداءً من تسعينيات القرن الماضي إلى يومنا هذا.

فبعد استقلال المغرب، "كانت المدينة تعرف عجزًا كبيرًا من حيث خدمة المساجد، بحيث سُجّلت نسبة النمو السنوي للمساجد بـ 4,5٪ ما بين سنتي 1907 و1960، بينما سُجّلت نسبة النمو السنوي كثافة في نفس الفترة بـ 5,8٪."[11] وأمام هذا الوضع، أصبح لزامًا على الهيئات والجهات الرسمية المكلّفة بتنظيم التخطيط العمراني، وكذا وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العمل على إنشاء مساجد جديدة تستوعب النمو السكاني المتزايد بالمنطقة.

وفي هذا الإطار، تم تشييد نحو 135 مسجدًا خلال الأربعين سنة الأولى من " العهد الحسني" (1957–1999)[12]، مع الالتزام بمعايير جمالية وهندسية هدفت إلى تجاوز مظاهر الفوضى العمرانية. كما تُسجّل الدراسات أنّه خلال ظرف عشر سنوات فقط من " الفترة المحمدية " تم بناء ما يقارب 100 مسجد[13]، وهو ما أدى إلى أن يصل **عدد المساجد بمدينة وجدة إلى نحو 300 مسجد**، وفقًا للإحصاء الميداني الذي أجراه **الأستاذ المراقب للمساجد، الصالحي محمد، سنة 2026** بينما تجاوز عددها مع ضواحي المدينة 400 مسجد. و" يتبيّن أنّ نسب النمو السنوي لأعداد المساجد قد فاقت، في أغلب الفترات، نسب النمو السنوي لأعداد سكان المدينة. "[14]

لم يكن هذا التوجه التراثي للمساجد في المدينة مجرد مشروع حكومي أو بناءً معمارياً فحسب، بل كان تجسيدًا لروح التضامن والالتزام الديني لدى أهل المنطقة. فقد كانت مساهمة المحسنين في تمويل وبناء المساجد ضخمة، إذ بلغت نسبة ما تم بناؤه عبر جهودهم وصدقاتهم **92%**، وهو ما يعكس حجم الوعي الديني والاجتماعي لدى المواطنين، وتفاعلهم الإيجابي مع مشروع الدعوة وبناء بيوت الله.

ومما يميز هذا المشروع أيضًا هو الإشراف العلمي والتوجيهي الذي كان يقوم به الشيخ ***مصطفى بن حمزة***، الذي شغل منصب رئيس المجلس العلمي المحلي سابقًا، ثم رئيس المجلس العلمي الجهوي حاليا. فقد كان لهذا الإشراف دورٌ كبير في توجيه المشاريع المساجدية نحو التوازن بين **الجودة المعمارية والخصوصية الروحية والجمالية للمدينة**، إضافة إلى تعزيز الوظائف التربوية والاجتماعية للمساجد.

ولذلك، عندما يتحدث الناس عن كثرة وارتفاع المساجد في المدينة، فإنهم يربطون ذلك مباشرة باسم هذا العالم الجليل ابن المنطقة الشرقية، الذي لم يتزحزح قيد أنملة منذ التسعينيات في الدعوة إلى بناء المساجد، **إيمانًا منه بأن المسجد هو نواة الحياة الروحية والاجتماعية**، وبمساهمات المحسنين الذين وضعوا أيديهم في بناء المساجد ونشر الخير. فالمسجد هنا ليس مجرد مكان للعبادة، بل هو رمز للتلاحم الاجتماعي والالتزام الديني، ونتاجٌ مشترك بين الدولة والمجتمع والعلماء.

ومع تطور الحياة الاجتماعية، **برزت إلى الواجهة مساجد حديثة** في المدينة، تعبّر عن الهوية الدينية نفسها، غير أنها توظّف **وسائل معمارية وخدماتية متجددة**. فقد تم اعتماد مواد حديثة في تشييد المساجد، مثل: الخرسانة المسلحة، والجبس المنقوش، والفولاذ المقاوم للصدأ، والإسمنت عالي الجودة، والزجاج العازل للضوء، إلى جانب استخدام الرخام في الأرضيات والواجهات، لما يوفره من سهولة في الصيانة والتنظيف. كما أصبحت المرافق الداخلية تتوفر على تجهيزات حديثة، من قبيل شاشات التلفاز لنقل البرامج الدينية، وأنظمة صوتية متطورة لتوزيع الأذان وخطبة الجمعة، إضافة إلى إضاءة كهربائية حديثة، ومكيفات هوائية، مع التركيز على اعتماد أنظمة موفّرة للطاقة.

---

[11] . وجدة ... من مسجد المدينة إلى مدينة المساجد، عبد الحق الصدق، وجدة في وجداننا بعيون متعددة، ص:45.

[12] . العمارة الإسلامية بالمغرب (مساجد وجدة نموذجا)، ص: 78.

[13] . نفس المرجع، ص: 78.

[14] . وجدة ... من مسجد المدينة إلى مدينة المساجد، ص: 44.

كما شهدت المساجد تطورًا ملحوظًا في تصميمها المعماري، حيث خُصِّصت طوابق علوية أو قاعات جانبية منفصلة لصلاة النساء، خلافًا للمساجد القديمة التي كانت غالبًا تفتقر إلى فضاءات واضحة ومرافق صحية مستقلة، كما أصبحت المساجد الحديثة تتوفر على منزل مستقل للإمام في الطابق العلوي أو ملاصقا له، مما يعكس الاهتمام بتنظيم المرافق والخدمات داخل المسجد.

وبرز أيضًا اعتماد الساحات الواسعة أمام المساجد، كما هو الشأن في مسجد الفضيلة، ومسجد أم البنين، ومسجد محمد السادس، مما جعل المسجد **فضاءً حضريًا مفتوحًا**، لا مجرد بناء مغلق، قادرًا على استيعاب أعداد كبيرة من المصلين، خاصة خلال صلاة الجمعة، والأعياد، وصلاة التراويح في شهر رمضان.

وعلاوة على ذلك، تتوفر معظم المساجد الحديثة على قاعات دراسية مخصصة لتحفيظ القرآن الكريم، أو لتعليم القراءة والكتابة. ويُعد مسجد محمد السادس نموذجًا معاصرًا لتوسيع وظائف المسجد، إذ يضم مكتبة وفضاءات تعليمية متعددة. كما تستفيد أغلب مساجد المدينة من حلقات دراسية أسبوعية، ومن أبرزها دورات تحفيظ القرآن الصيفية التي تُنظَّم سنويًا تحت إشراف المجلس العلمي المحلي، وهو ما يؤكد توفر قاعات تعليمية فعلية تُستثمر في أداء هذا الدور التربوي النبيل.

في ضوء ما سبق، يتبيّن للناظر، من خلال هذه التصورات العجولة حول عمارة المساجد بمدينة وجدة المغربية، أن هذه المساجد ليست مجرد منشآت دينية أو تحولات عمرانية عابرة. بل هي **مرآة للهوية الحضارية**، و**مخزون حي للتوهج التراثي والتاريخي** والثقافي الطويل، تتداخل الطقوس المعمارية الأندلسية مع هواجس العصر الحديث في حوار كوني متجدّد. فمن مئذنة المسجد الأعظم (الجامع الكبير) التي تقف شامخةً هادئةً، شاهدةً على عصورٍ مضت، إلى مئذنة مسجد محمد السادس التي تعكس قدرة العمارة الدينية المغربية على التوفيق بين الأصالة والتجدد، يتجسّد هذا الحوار في استمرار الفعل الديني والمعماري عبر الزمن. فالآذان، في هذا المعنى، ليس مجرد نداء للصلاة، بل هو **جسرٌ متين بين الماضي والحاضر**، وبين تاريخ مدينة وجدة الحافل وحياتها المعاصرة، إذ يربط بين إرثٍ عريق ووعيٍ معاصر، ويؤكد أن العمارة الدينية في المدينة ليست ثابتةً جامدةً، بل هي كيان حيّ يتفاعل مع الزمن دون أن يفقد هويته.

وعليه، فإن الخوض في عمق مساجد مدينة وجدة يفتح آفاقًا واسعة لفهم العلاقة بين الدين والعمران والهوية، ويُظهر أن المسجد ليس مجرد بناء، بل ذاكرةٌ حية تتجدد عبر الزمان. ولأن هذا التراث معقّد وعميق، يبقى من الصعب الإحاطة بكل خفاياه في حدود نص واحد.

المصادر والمراجع:

- تاريخ مدينة وجدة: من التأسيس إلى سنة 1830م مارية دادي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة (جامعة محمد الأول) سنة 2004.
- تاريخ وجدة وأنكاد في دوحة الأمجاد، اسماعيلي مولاي عبد الحميد العلوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1989، الجزء الثاني.
- العمارة الإسلامية بالمغرب (مساجد وجدة نموذجا)، علي الرابحي، المجلس العلمي المحلي لمدينة وجدة، الطبعة الأولى، 2017.
- الممالك والمسالك، أبو عبيد الله البكري، تحقيق (أدريان ليوفن وأندري فيري)، الدار العربي للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق، بيت الحكمة، الجزء الثاني.
- وجدة في وجداننا بعيون متعددة، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية وجدة، 2019.